

الآفة الحادية والثلاثون

الكبت

والآفة الحادية والثلاثون التي كانت وراء شيوع كثير من الفتن والمنكرات، وصارت حجر عثرة في طريق النبوغ والنهوض والتقدم، إنما هي: « الكبت » .
وحتى يتخلص منها مَنْ شاعت وانتشرت بينهم، ويتوقاها مَنْ سَلَّمهم الله - عزَّ وجلَّ - منها، فإنه لابدَّ من القيام بطائفة من الأعباء والمسؤوليات وفي مقدمتها: الوقوف على أبعاد ومعالم هذه الآفة، وفي هذه السطور بيان لهذه الأبعاد، وتلك المعالم على هذا النحو :

أولاً : تعريف الكبت لغةً واصطلاحاً :

لغةً : يأتي الكبت في اللغة على عدة معانٍ، منها :

١ - الصرع والهزم، تقول: كبت فلان فلاناً : صرَّعه وهزَّمه .

٢ - الكسر، والذل، تقول: صرع المسلمون عدوَّهم : كسروه وأذلَّوه .

٣ - الصرف ، والرَّدُّ بغيظ وخزي، تقول: كبت فلان فلاناً : صرفه، ورَّدَه بغيظ وخزي، وكبت الله العدوَّ كِبْتاً : غاظه، وأذله، وأخزاه، ومنه قوله تعالى : ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَبُهُم فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ [آل عمران] .

٤ - الحبس، تقول: كَبَّتَ فلانٌ غيظه أو شهوته : حبسه .

٥ - الامتلاء غيظاً أو غما ، تقول : اكْتَبَتْ فلانٌ : امتلأ غيظاً أو غما ، يقول الفيروز آبادي : « كَبَّتْهُ ، يَكْبِتُهُ : صرَّعه ، وأخزاه ، وصرَّفه ، وكسَّره ، ورَّدَ العدوَّ بغيظه ، وأذلَّه ، والمكْتَبْتُ : الممتلئ غما » (١) ، وقيل : التاء بدل من الدال، كأنَّ الأصل، كبده، أي فعل به ما يؤذى كبده (٢) .

(١) انظر : القاموس المحيط ١ / ٣٣٦ .

(٢) انظر : القاموس المحيط ١ / ٣٣٦ ، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ لأحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي ٣ / ٤٢٧ - ٤٢٨ ، والنهاية في غريب الحديث والأثر ٤ / ٣ ، والمعجم الوسيط ٢ / ٧٧٢ ، والصاحح في اللغة والعلوم للمرعشليين ص ٩٧٥ .

ولا تعارض بين هذه المعانى جميعاً، لأن بعضها يعبرُ عن جوهر الكبت إجمالاً، وهو: فعل كل ما يؤذى، وبعضها يعبر عن جوهر الكبت تفصيلاً، وهو الصرع، والهزم، أو الكسر، والذل، أو الصرف والرد بغیظ وخزى، أو الحبس للشيء، أو الامتلاء غيظاً أو غمماً.

اصطلاحاً : أما فى الاصطلاح فقد عرّفه الفلاسفة بأنه عملية نفسية لا شعورية تحول دون خروج الأفكار والرغبات المؤلمة أو المحرّمة إلى نطاق الشعور رغم بقائها حيّة فعالة فى اللاشعور (١) .

وتصورى : أن منع خروج الأفكار السيئة، والرغبات المحرّمة ليست كَبْتًا، وإنما هو نوع من قوة الإرادة، وصدق العزيمة، وعلوّ الهمة يمنع هذه من الخروج لما فيها من أذى للنفس وللغير، مع إبدالها بالأفكار السليمة، والرغبات النافعة للنفس وللغير.

وانطلاقاً من ذلك فإن التعريف المناسب للكبت : أنه اسم لمنع أو حبس الأفكار السليمة، والرغبات النافعة، والسلوكيات المستقيمة من الخروج إلى الواقع بصورة تملأ النفس حزناً وكمدًا، أو غيظاً وغمماً.

ثانياً : أهم المظاهر الدالة على الكبت مع بيان موقف الإسلام منه :

وهناك مظاهر كثيرة دالة على الكبت، نذكر منها :

١ - إصاق التهم بأصحاب الأفكار النيرة، والسلوكيات المستقيمة، والعمل على تشويه صورتهم، وتدنيس سمعتهم.

٢ - ملاحقة ومحاصرة أصحاب الأفكار السليمة، والسلوكيات الحميدة، بل إيقاع العقوبات: البدنية، والمالية، والأدبية، ونحوها بهم.

٣ - وصف أفكار هذا الصنف من الناس بأنها رجعية، وسلوكياتهم بأنها متأخرة ومنحطة، وغير ملائمة لأفكار العصر وسلوكياته.

٤ - فرض الأفكار الهدامة، والسلوكيات المنحرفة على الناس، وهلم جرا.

والإسلام يحظر كبت الآخرين بالمعنى الذى مضى آنفاً لما فيه من حرمان الأمة من إسهامات أصحاب الأفكار النافعة، والسلوكيات السديدة، ويتجلى هذا الحظر فى هذه الصور :

(١) انظر : الصحاح فى اللغة والعلوم ص ٩٧٦ .

١ - الوعيد بالعذاب الشديد يوم القيامة لكل من يحارب الدعوة إلى الله ويعمل على كبتهم أو تكسيم أفواههم، والحيلولة بينهم وبين إبلاغ كلمة الله إلى عباد الله، يقول تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٢)﴾ [آل عمران] .

يقول الألوسي - رحمه الله : « أى أولئك المتصفون بتلك الصفات الشنيعة الذين بطلت أعمالهم، وسقطت عن حيز الاعتبار، وخَلَّتْ عن الثمرة في الدنيا، حيث لم تحقن دماؤهم وأموالهم، ولم يستحقوا مدحاً، وثناءً، وفي الآخرة حيث لم تدفع عنهم العذاب ولم ينالوا بسببها الثواب... والمراد من انتفاء الناصرين: انتفاء ما يترتب على النصر من المنافع والفوائد، وإذا انتفت من جمع، فانتفاؤها من واحد أولى، ثم إن هذا الحكم وإن كان عاماً لسائر الكفار كما يؤذن به قوله تعالى : ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [آل عمران : ١٩٢] إلا أنه له هنا موقعاً، حيث إن هؤلاء الكفرة وصفوا بأنهم يقتلون الذين يأمرون بالقسط، وهم ناصرو الحق، ولا يوجد فيهم ناصر يحول بينهم وبين قتل أولئك الكرام، فقبولوا لذلك بعذاب لا ناصر لهم منه، ولا معين لهم فيه، ومن الناس مَنْ زعم: أن في الآية مقابلة ثلاثة أشياء بثلاثة أشياء: الكفر بالعذاب، وقتل الأنبياء بحبط الأعمال، وقتل الأمرين بانتفاء الناصر، وهو كما ترى » (١) .

وعن أبي عبيدة بن الجراح قال : قلتُ : يا رسول الله، أىُّ الناس أشدَّ عذاباً يوم القيامة ؟ قال : « رجل قتل نبياً، أو رجلاً أمر بالمعروف ونهى عن المنكر » ثم قرأ الآية، ثم قال ﷺ : « يا أبا عبيدة، قتلْتُ بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً أول النهار في ساعة واحدة، فقام مائة رجل وسبعون رجلاً من عباد بنى إسرائيل، فأمرُوا مَنْ قتلهم بالمعروف، ونهَوْهم عن المنكر، فقتلُوا جميعاً من آخر النهار من ذلك اليوم، فهم الذين ذكر الله تعالى » (٢) .

٢ - الدعوة إلى رفض هذا الكبت بطريق أو بأخرى، وإلا كان العقاب الشديد من الله لمن رضوا بذلك مثلاً هذا العقاب في اللعن والطرْد من رحمة الله مع التباغض والفرقة .

(١) انظر : روح المعاني ٣ / ١٠٩ - ١١٠ .

(٢) الحديث أورده ابن جرير الطبري في : جامع البيان في تفسير القرآن ٣ / ١٤٤ - ١٤٥، وعنه وعن ابن أبي حاتم نقل السيوطي في : الدر المنثور في التفسير بالماثور ٢ / ١٦٨ - ١٦٩ من حديث أبي عبيدة بن الجراح مرفوعاً بهذا اللفظ .

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « إن مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذَا عَمِلَ فِيهِمُ الْعَامِلُ الْخَطِيئَةَ فَنَهَاها النَّاهِي تَعْذِيرًا ، فَإِذَا كَانَ مِنَ الْغَدِ جَالِسَهُ ، وَوَاكَلَهُ ، وَشَارِبَهُ ، كَأَنَّهُ لَمْ يَرِهِ عَلَى خَطِيئَةٍ بِالْأَمْسِ ، فَلَمَّا رَأَى اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ مِنْهُمْ ضَرْبَ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ ، عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَلَتَأْخُذَنَّ عَلَى أَيْدِي الْمُسِيءِ ، وَلَتَأْطُرَنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا (١) ، أَوْ لِيُضْرِبَنَّ اللَّهُ بِقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَلِيُعْزِمَنَّ كَمَا لَعَنَهُمْ » (٢) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال : « إِذَا رَأَيْتَ أُمَّتِي لَا يَقُولُونَ لِلظَّالِمِ مِنْهُمْ : أَنْتَ ظَالِمٌ ، فَقَدْ تَوَدَّعَ (٣) مِنْهُمْ » (٤) .

٣ - سقوط منزلة الأمة عندما ترضى بالكبت إلى حدِّ تسليط غيرها من الأمم عليها ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : لما رجعتُ إلى رسول الله ﷺ مهاجرة البحر ، قال : « أَلَا تَحْدِثُونِي بِأَعْجَابٍ مَا رَأَيْتُمْ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ ؟ » قال فتيةٌ منهم : بلى يا رسول الله ، بينما نحن جلوس مرّت بنا عجوز من عجائز رهايينهم تحمل على رأسها

(١) لتأطرَّه على الحقِّ : يعنى لتعطفَّه ، ولتحملنَّه على الحق حملًا ، تقول : أطر الشيء : بأطره : عطفه ، وثناه ، انظر : النهاية فى غريب الحديث والأثر ١ / ٣٤ .

(٢) الحديث أورده الهيثمى فى : مجمع الزوائد : كتاب الفتن : باب وجوب إنكار المنكر ٧ / ٢٩٦ من حديث أبي موسى الأشعري مرفوعًا بهذا اللفظ ، وعزاه إلى الطبرانى قائلًا : « رواه الطبرانى ، ورجاله رجال الصحيح » .

(٣) تودَّعَ منهم - بضم التاء والواو - : مبنى للمجهول من التوديع ، والمعنى استريح منهم ، وخُذِلُوا ، وخُلِّىَ بينهم ، وبين ما كانوا يرتكبون من المعاصى ، وقيل المعنى : أسلموا إلى ما استحقوه من التكثير عليهم ، وتُرِكُوا وما استحبوه من المعاصى حتى يكثرُوا منها فيستوجبوا العقوبة ، وهو من المجاز لأنَّ المَعْتَى بإصلاح شأن الرجل إذا يس من صلاحه تركه ، واستراح من معاناة النصب معه ، ويجوز أن يكون من قولهم : تودَّعْتُ الشيء إذا صُنِّتْهُ فى مِدَّعٍ ، يعنى : قد صاروا بحبِّ يتحفَّظ منهم ، ويتوقَّسون ، كما يتوقَّى شرار الناس ، انظر : النهاية فى غريب الحديث والأثر ٤ / ٢٠١ .

(٤) الحديث أخرجه أحمد فى : المسند (١٩ / ١٧٥ ، ١٧٦ الفتح الربانى) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعًا بهذا اللفظ ، وأورده الهيثمى فى : مجمع الزوائد : كتاب الفتن : باب وجوب إنكار المنكر ٧ / ٢٦٩ - ٢٧٠ ، وقال : « رواه أحمد واليزار ، والطبرانى ، وأحد أسانيد الزار رجاله رجال الصحيح ، وكذا إسناد أحمد ، إلا أنَّه وقع فيه فى الأصل غلطٌ » ، بيد أن الساعاتى عَقَّبَ على الهيثمى فى : بلوغ الأمانى ١٩ / ١٧٦ بقوله : الغلط الذى أشار إليه : الحسن بن عمرو - كما جاء فى النسخة التى وقعت - : حدثنا الحسن بن عمرو ، والصواب : حدثنا الحسن بن عمرو ، كما جاء فى نسختنا ، وأورده المنذرى فى : الترغيب والترهيب ، وقال : « رواه الحاكم ، وقال : صحيح الإسناد ، وأقره الذهبي » ، وأورده السيوطى فى : الجامع الصغير ، وعزاه للإمام أحمد ، والطبرانى فى الكبير ، والحاكم ، والبيهقى فى شعب الإيمان .

قلة من ماء، فمرت بفتى منهم، فجعل إحدى يديه بين كتفها، ثم دفعها فخرت على ركبتيها، فانكسرت قلتها، فلما ارتفعت التفت إليه، فقالت: سوف تعلم يا غدر إذا وضع الله الكرسي، وجمع الأولين، والآخرين، وتكلمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون، فسوف تعلم كيف أمرى وأمرك عنده غداً، فقال رسول الله ﷺ: «صدقت، صدقت، كيف يقدر الله أمة لا يؤخذ لضعيفهم من شديدهم» (١).

ورغم هذا فالإسلام لا يمنع الناس أن يدينوا بدين آخر بشرط عدم الدعوة إليه بوسيلة أو بأخرى، قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وقال تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس].

فإن أصروا على الدعوة إلى كفرهم وباطلهم فلا بد من مدافعتهم يعنى كبتهم لئلا تتحول الأرض إلى بؤرة من الشر والفساد، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكِّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج].

وإذا كان هذا هو موقف الإسلام من كبت الشعوب لتختفى الفضيلة، وتنتشر الرذيلة، فإن الموقف لا يختلف كثيراً عن كبت الأفراد، إذ الشعوب هي مجموع الأفراد وما يشعر به الفرد يظهر صده في الشعب.

وفى ضوء ما تقدم يمكن فهم قوله تعالى: ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَبُهُمْ فَيَقْبَلُوا خَائِبِينَ﴾ [آل عمران].

يقول الشيخ محمد رشيد رضا: «وأما قوله: ﴿أَوْ يَكْتَبُهُمْ﴾ فقد فسروه بأقوال، منها: أن معناه يخزيهم، ومنها: أن معناه يصرعهم لوجوههم، وفى الأساس: كبت الله

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه فى: السنن: كتاب الفتن: باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ٢ / ١٣٢٩ برقم (٤٠١٠) من حديث عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن أبى الزبير، عن جابر مرفوعاً. وأورده الشهاب البوصيرى فى: مصباح الزجاجة برقم (١٤١٠) وعقب عليه قائلا: «إسناده حسن، وسعيد بن سويد مختلف فيه».

عدوه، أكبه، وأهلكه ، ولكن صاحب الأساس فسر الكلمة في الكشف بقوله : «ليخزيهم، ويغيظهم بالهزيمة»، وقال الراغب: الكبت الرد بعنف وتذليل . وقال البيضاوى: أو يخزيهم، والكبت شدة الغيظ، أو وهن يقع في القلب، وكل هذه المعانى وردت في كتب اللغة، وصرح البيضاوى بأن «أو» هنا للتنويع لا للترديد، والمعنى: أنه يقطع طرفاً، وطائفة، ويكبت: طائفة أخرى، أى: ويتوب على طائفة، ويعذب طائفة كما في الآية الآتية ^(١) .

كما يمكن فهم قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنُوا كَمَا كَبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقد أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ [المجادلة] .

يقول ابن عطية - رحمه الله : « هذه الآية نزلت في المنافقين ، وقوم من اليهود وكانوا في المدينة يتمرسون برسول الله ﷺ «يحتكون به»، ويتربصون بهم الدوائر، ويديرون عليهم، ويتمنون فيهم المكروه، ويتناجون بذلك فتزلت : ﴿ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ : وهم منافقو الأمة الماضية الذين حادوا الرسل عليهم الصلاة والسلام قديماً فليس هؤلاء المنافقون بأعذر من المتقدمين » ^(٢) .

ثالثاً : أسباب الكبت وبواعثه :

وللكبت أسباب توقع فيه، وبواعث تدعو إليه، نذكر منها :

١ - حرمان المرء حقه من التعبير عن رأيه بصراحة ووضوح منذ الصغر:

ذلك أن المرء إذا شبَّ محروماً من التعبير عن رأيه بصراحة ووضوح صعب عليه إعلان ذلك عندما يشب عن الطوق إذ من نشأ على شيء شاب عليه إلا أن تتداركه رحمة الله - عز وجل .

ولذا كان من أسس التربية : إعطاء الصغير حرية التعبير عما عنده بصراحة ووضوح مع تقويم وتهذيب ما يمكن أن ينطوى عليه ذلك من خلل أو عوج .

٢ - الخوف من الوقوع في الخطأ لمرض ونحوه مع عدم استيعاب المحيطين بالمرء لذلك فيسخرون منه ويستهزئون :

ذلك أن المرء قد يكون مصاباً ببعض عيوب النطق أو لم يدرّب على الحديث مع الآخرين منذ الصغر، وحينئذ لا يحب أن يبدى رأيه في شيء خوفاً من الوقوع في الخطأ، والمحيطون به لا يستوعبون ذلك فينالون منه بسخرية أو استهزاء أو نحو ذلك .

(١) انظر : تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار ٤ / ١١٧ .

(٢) انظر : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ١٤ / ٣٤١ - ٣٤٢ .

ومن هنا لزم الانتباه للصغير بحيث إذا ظهرت به بعض الأمراض لاسيما أمراض النطق أن يعالج بسرعة، وكذلك ينبغي تعويده وتدريبه على لقاء الآخرين، والحديث معهم بحيث يزول حاجز الخوف والرغبة، وتكون الجرأة والشجاعة فى التعبير عن الرأى، وإتيان السلوك الحميد.

٣ - عدم تقدير رأى الآخرين والانتفاع به :

ذلك أن عدم تقدير رأى الآخرين ، والانتفاع به كما يفعله ذوو المسؤولية، وصنّاع القرار فى بلادنا العربية والإسلامية مع أصحاب الآراء الحرّة التزيهة النافعة من الإهمال والإهدار، بل السخرية والاستهزاء ، مما يكون سبباً فى الوقوع فى الكبت، والاصطلاء بناره.

ومثل ذلك يمكن أن ينطبق على الأبوين مع صغارهما، والأصحاب مع بعضهم البعض.. وهكذا.

٤ - ضغط العادات والتقاليد الباطلة مع الحرص على الاستمسك بالعادات والسلوكيات التى جاء بها الشرع الحنيف:

ذلك أن ضغط العادات والتقاليد الباطلة مع الحرص على الاستمسك بالعادات والسلوكيات التى جاء بها الشرع الحنيف، مما يصيب المراء بالكبت، لاسيما إذا كان عوده لا يزال غضاً طرياً لم يكتسب حصانة ولا مقاومة ضد باطل هذه العادات والتقاليد.

وهذا واضح فى عصرنا الذى كثر فيه الخبث، وانتشرت فيه الفتن، وصار أهل الفضيلة فيه أندر من الكبريت الأحمر، أو حبات اللؤلؤ المتناثرة فى صحراء مترامية الأطراف.

٥ - تقديم فاقد الأهلية أو الضعيف على ذى الكفاية مع عدم القدرة على التعبير:

ذلك أن تقديم فاقد الأهلية أو الضعيف على ذى الكفاية مع عدم القدرة على التعبير مما يصيب المراء بالإحباط والكبت ليس حقداً أو حسداً، وإنما لحرمان الأمة من طاقات وإمكانات ذوى الكفاية من أبنائها، وإيقاعها فيما لا تحمد عقباه بواسطة فاقدى الأهلية أو الضعفاء.

٦ - العبث بالقيم العليا والمبادئ السامية مع عدم القدرة على التعبير:

ذلك أن العبث بالقيم العليا، والمبادئ السامية كالتل من الذات الإلهية، وإهانة الأنبياء والمرسلين والملائكة، والعدوان على القرآن، والسخرية من اليوم الآخر، وتحقير

الفضيلة، ونحو ذلك مع عدم القدرة على التغيير. . ذلك كله قد يورث الكبت والقهر والعياذ بالله، والواقع الذى تعيشه الأمة المسلمة اليوم سواء فى بلاد العرب أم فى غيرها من البلدان، والقائم على تسليط وسائل الإعلام، ودور التربية والتعليم للنيل من الإسلام وأهله هو الذى صنع ظاهرة الكبت والقهر التى شاعت وانتشرت فى ربوع الأمة لاسيما بين الشباب، وأثمرت هذه الثمار المرة التى سيأتى الحديث عنها فى آثار وعواقب الكبت.

٧ - اختلال معايير تقييم الناس :

ذلك أن معيار تقييم الناس الثابت الذى لا يتغير أبداً من قديم : إنما هو التقوى التى مبنها الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر، ثم العمل الصالح، وقد ينسى الناس لسبب أو لآخر ذلك، وتنشأ معايير أخرى لتقييم الناس من: المال، والجاه، والنسب، والعشيرة. . ونحوها، وكلها معايير يدخل فيها الهوى، ويغطيها الخداع بحيث يحترم الضعيف الذى لا يحسن شيئاً، سوى أنه من الأثرياء، أو من عائلة، أو صاحب مركز ومنصب، ويهان ذو الكفاية والنباهة، وحينئذ لا يجد هؤلاء الأقوياء أصحاب الكفاية والنباهة من ملجأ سوى كبت ما لديهم من خير مع شدة الحسرة والحزن.

٨ - خلو الحياة من الصديق الصادق الوفى :

ذلك أن شخصية المرء إنما تنضج وتكتمل من خلال الصديق الصادق الوفى الملتزم بمبادئ الشرع الحنيف، وقد يحدث - لكثرة الخبث - أن تخلو الحياة من هذا الصديق الصادق الوفى الذى يفضى إليه المرء بهموه، ومكنونات نفسه كى يشاركه فى حمل ذلك، وحينئذ لا يكون أمامه سوى الكبت والقهر، ولذا رأينا موسى يطلب من ربه حين كلفه الذهاب إلى فرعون ليرده عن طغيانه يطلب من ربه الإعانة بأخيه هارون قائلاً : ﴿وَجْعَلْ لِي زَويًا مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَرُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) ﴾ [طه] .

٩ - سوء المعاملة المتمثل فى السخرية والسب والتعذيب ونحو ذلك :

وقد يكون سوء المعاملة المتمثل فى السخرية، والسب، والسجن، والتعذيب، والتنكيل بالأهل والأقارب، ونحو ذلك على نحو ما تصنعه كثير من الحكومات العربية والإسلامية بأبنائها ممن يستمسكون بالفضيلة، ويرفضون الرذيلة، ويرضون بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، بدعوى الإرهاب والتطرف، حتى حاول

نفر من هؤلاء الذين لم يتحملوا سوء المعاملة هذه الظهور بمظهر المتحليلين من كل قيمة فاضلة أو خلُق سام ، فتراه يرتاد أماكن اللهو والفجور، وإن لم يمارس فيها شيئاً أو يعلق فى بيته صوراً خليعة ماجنة، كل هذا ليبعد عنه تهمة أنه مسلم متطرف أو أصولى، وما هذا كله سوى الكبت والقهر، وقديماً اضطر عمار بن ياسر أن يخفى إسلامه تحت وطأة التعذيب لعدم تحمله، ويعجب المشركين إلى ما طلبوا، وجاء بعدها يشكو إلى النبي ﷺ الهلاك، وسأله النبي ﷺ : «كيف تجد قلبك ؟». قال: أجده مطمئناً بالإيمان. قال: «إن عادوا فعد»، ونزل قول الله عز وجل : ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل] .

١٠ - ضعف الإيمان :

وقد يكون ضعف الإيمان هو السبب فى الكبت والقهر، ذلك أن ضعف الإيمان إذا نزلت به شدة أو محنة ولم يُحسن التصرف فيها أصابه الهلع والجزع، وكان الكبت والقهر، بينما أقوىاء الإيمان يقدرون أن الأمر محض ابتلاء من الله - عز وجل - وعليهم الرضا والتسليم، واستئناف المسيرة ليدل الله حالهم من ذل إلى عز، ومن هوان إلى رفعة، ومن محنة إلى منحة .. وهكذا.

١١ - عدم تقدير عواقب الكبت :

وقد يكون عدم تقدير عواقب الكبت من بين الأسباب التى توقع فيه، ذلك أن من جهل العواقب الضارة، والآثار المهلكة لأمر مَّا وقع فيه دون أن يشعر، لذا وجب التفكير فى عواقب أى أمر وآثاره قبل الإقدام عليه.

رابعاً : العواقب والآثار المترتبة على الكبت :

وللكبت عواقب ضارة، وآثار مهلكة سواء على العاملين أم على العمل الإسلامى، ودونك هذه الآثار وتلك العواقب :

أ - على العاملين :

وهى كثيرة نذكر منها :

١ - اضطراب الأعصاب :

ذلك أن الكبت نوع من الضغط على الأعصاب، الأمر الذى ينتهى إلى انحراف

السلوك، وعدم السداد فى رأى، بل عدم القدرة على التكيف الاجتماعى، ومن يتابع التدرج التاريخى لمقترفى الجرائم يجد أن نسبة عالية منها مردها إلى الكبت والقهر.

٢ - عدم الرحمة أو الشفقة على الغير حين يصير أمره بيده :

ذلك أن الذى عانى الكبت يشعر أنه لم يحظ بشيء من الرحمة أو الشفقة، وبالتالي يحاول أن يشفى غليله، وأن يُنَفِّس عن غيظه وحقدته بعدم الرحمة والشفقة على الآخرين حين يصير مسؤولاً عنهم، وكأنه يرى أن ذلك نوع من الثأر أو القصاص، ومن ينقب فى حياة المستبدين أو المتسلطين أو الطغاة يجدها فى الأعم الأغلب مبنها الكبت والقهر فى مرحلة من مراحلها.

٣ - الانتقام الشديد ممن كان سبباً فى الكبت حين تتاح الفرصة :

وموقف بلال من أمية بن خلف يوم بدر ذلك الذى كان يتفنن فى تعذيبه وكبته وقهره فى مكة خير شاهد على ذلك، إذ يقول عبد الرحمن بن عوف:

« كاتبُ أمية بن خلف كتاباً بأن يحفظنى فى صاغيتى بمكة، وأحفظه فى صاغيته بالمدينة، فلما ذكرتُ « الرحمن » قال: لا أعرف الرحمن، كاتبنى باسمك الذى كان فى الجاهلية فكاتبته: عبد عمرو، فلما كان فى يوم بدر خرجتُ إلى جبل لأحرزه حين نام الناس، فأبصره بلال، فخرج حتى وقف على مجلس من الأنصار، فقال: أمية بن خلف، لا نجوتُ إن نجى أمية، فخرج معه فريق من الأنصار فى آثارنا، فلما خشيتُ أن يلحقونا خلفتُ لهم ابنه لأشغلهم فقتلوه، ثم أبوا حتى يتبعونا - وكان رجلاً ثقيلاً - فلما أدركونا قلتُ له: ابرك، فبرك، فألقيتُ عليه نفسى لأمّنه فتحلّوه بالسيوف من تحتى حتى قتلوه، وأصاب أحدهم رجلى بسيفه، وكان عبد الرحمن بن عوف يرينا ذلك الأثر فى ظهر قدمه (١).

٤ - العزلة والانقطاع عن الناس أو ما يسمى بالاكْتئاب :

وقد لا تتاح الفرصة للمكبوت أو المقهور أن يبدى ما بداخله، فيترجم ذلك إلى عزلة وانقطاع، أو ما يُعرف بالاكْتئاب، وبذلك تخسر الأمة طاقات وإمكانات كان بمقدورها الإسهام فى دفع مسيرة الأمة إلى الأمام، ورفع رايته خفاقة فى العالمين.

(١) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الوكالة: باب إذا وكلّ المسلم حريباً فى دار الحرب، أو فى دار الإسلام جاز ٣/ ١٢٩، وكتاب المغازى: باب قتل أبى جهل ٥/ ٩٦ من حديث عبد الرحمن بن عوف بهذا اللفظ، ومختصراً.

٥ - النفاق ، أو إظهار خلاف ما يبطن :

وقد ينتهى الكبت والقهر بصاحبه إلى النفاق أو إظهار خلاف ما يُبطن اتقاء أذى الجبارين والتسلطين، أو المستبدين، فإن صاحب المسؤولية إذا ابتغى الريبة فيمن تحت سلطانه أفسدهم .

٦ - الحقد على الآخرين :

وقد تكون عاقبته كذلك: الحقد على الآخرين خصوصاً إذا استمر هذا الكبت أو القهر دون تنفيس أو تفريج، ويوم تنتشر الأحقاد بين الناس فقد تودع منهم، وصارت الأبواب مفتوحة أمام الأعداء للنيل من حريتهم وكرامتهم .

ب - على العمل الإسلامى :

ومن آثار الكبت على العمل الإسلامى :

١ - حرمان المجتمع من خيرة طاقاته وإمكاناته :

إذ ما يصيب الأفراد ينعكس على المجتمع، وتكون النتيجة حرمان هذا المجتمع من خيرة طاقاته وإمكاناته، الأمر الذى يؤدى إلى طول الطريق مع كثرة التكاليف .

٢ - انتشار الجريمة :

وقد يؤدى الكبت إلى انتشار الجريمة بين ربوع المجتمع فيغيب الأمن والأمان، ويتأخر هذا المجتمع ، فتعظم التكاليف كذلك وتطول الطريق .

٣ - الفرقة والشتات :

وأخيراً تكون الكراهية بين أبناء المجتمع، وتكون الفرقة والشتات، الأمر الذى يُطمع الأعداء، ويدفعهم إلى النيل من كرامة وعزة الأمة .

خامساً : علاج الكبت والوقاية منه :

يمكن علاج الكبت والوقاية منه على ضوء ما تقدم باتباع هذه الخطوات :

١ - تعريف المرء رسالته فى الأرض ومعوقات الطريق وسبيل النجاة :

ذلك أن الإنسان إذا عرف رسالته فى الأرض، ووقف على معوقات الطريق، وسبيل النجاة، وتجاوز هذه العقبات انطلق يؤدى هذه الرسالة غير مبال بما يلحقه من

أذى أو شدة، بل إنه ليحتسب ذلك كله عند الله، فأين الكبت إذن والقهر، وصفحات تاريخنا كلها إشراقة وبهاء في هذا المعنى.

تروى عائشة رضي الله عنها فتقول : « لما اجتمع أصحاب النبي ﷺ وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً ألح أبو بكر على النبي ﷺ في الظهور، فقال: «يا أبا بكر، إنا قليل» فلم يزل أبو بكر يلح حتى ظهر رسول الله ﷺ، وتفرق المسلمون في نواحي المسجد، كل رجل في عشيرته، وقام أبو بكر في الناس خطيباً، ورسول الله ﷺ جالس، فكان أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسوله ﷺ، وثار المشركون على أبي بكر، وعلى المسلمين، فضرَبوا في نواحي المسجد ضرباً شديداً، ووطئ أبو بكر، وضرَب ضرباً شديداً، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين، ويحرِّفهما لوجهه، ونزا على بطن أبي بكر حتى ما يعرف وجهه من أنفه.

وجاء بنو تميم يتعادون فأجلت المشركين عن أبي بكر، وحملت بنو تميم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله، ولا يشكون في موته، ثم رجعت بنو تميم، فدخلوا المسجد، وقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة، فرجعوا إلى أبي بكر، فجعل أبو قحافة وبنو تميم يكلمون أبا بكر حتى أجاب فتكلم آخر النهار، فقال: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فمسوا منه بالسستهم، وعذلوه، ثم قاموا، وقالوا لأمته أم الخير: انظري أن تطعميه شيئاً أو تسقيه إياه، فلما خلَّتْ به ألحَّتْ عليه وجعل يقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فقالت: والله ما لى علم بصاحبك، فقال: اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسألها عنه.

فخرجت حتى جاءت أم جميل، فقالت: إن أبا بكر يسألك عن محمد ابن عبد الله؟ فقالت: ما أعرف أبا بكر، ولا محمد بن عبد الله، وإن كنت تحيين أن أذهب معك إلى ابنك؟ قالت: نعم، فمضيت معها حتى وجدت أبا بكر صريعاً دنقاً، فدنّت أم جميل وأعلنت بالصياح، وقالت: والله إن قوماً نالوا هذا منك لأهل فسوق وكفر، وإننى لأرجو أن ينتقم الله لك منهم، قال: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالت: هذه أمك تسمع. قال: فلا شيء عليك منها، قالت: سالم صالح، قال: فأين هو؟ قالت: في دار ابن الأرقم، قال: فإن لله على ألا أذوق طعاماً، ولا أشرب شرباً أو أتى رسول الله ﷺ.

فأمهلنا حتى إذا هدأت الرُّجُل، وسكن الناس، خرجتا به يتكئ عليهما حتى أدخلتا على رسول الله ﷺ، قال: فأكبَّ عليه رسول الله ﷺ فقَبَلَهُ، وأكبَّ عليه

المسلمون، ورقَّ له رسول الله ﷺ رَقَّةً شديدة، فقال أبو بكر: بأبى وأمى يا رسول الله ليس بى بأس إلا ما نال الفاسق من وجهى، وهذه أمى برَّةٌ بولدها، وأنت مبارك فادعها إلى الله، وادع الله لها عسى الله أن يستنقذها بك من النار، قال: فدعا لها رسول الله ﷺ ودعاها إلى الله فأسلمت، وأقاموا مع رسول الله ﷺ فى الدار شهراً - وهم تسعة وثلاثون رجلاً - وقد كان حمزة بن عبد المطلب أسلم يوم ضُربَ أبو بكر « (١) » .

ولما أسلم أبو ذر الغفارى قال له النبى ﷺ : « ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيتك أمرى » .

فقال: والذي بعثك بالحق لأصرخنَّ بها بين ظهرانيهم، فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ثم قام فضربوه حتى أضجعوه، وأتى العباس فأكبَّ عليه قال: ويلكم أستم تعلمون أنه من غفار، وأن طريق تجارتكم إلى الشام، فأنقذه منهم، ثم عاد من الغد لمثلها فضربوه، وثاروا إليه، فأكب العباس عليه... الحديث (٢) .

والنماذج من حياة الصحابة أكثر من أن تحصى، ومثل ذلك وقع فى عصر المُلْك الجبرى الذى تعيشه الأمة المسلمة اليوم، فقد وقف أبناء الحركة الإسلامية فى وجه الطغيان ومحاولة فرض المناهج الشيوعية، والصليبية، والصهيونية، والعلمانية، والبعثية، والطائفية، ونحوها، وتحملوا ومازالوا يتحملون فى ذلك الشئ الكثير رافضين أن يكونوا أسرى الكبت والقهر، ومحتسبين كل ما يصيبهم فى ذات الله، موقنين أن هذه طريق أصحاب الدعوات: شدائد، وامتحانات، وتعذيب، وتنكيل، ثم يكون النصر والتمكين، والأمن والأمان.

٢ - التنشئة على إبداء الرأى وتقويمه بحكمة إن كان خاطئاً :

عن سهل قال: مرَّ رجل على رسول الله ﷺ فقال: «ما تقولون فى هذا ؟» قالوا: حرىُّ إنْ خُطِبَ أنْ يُنكَّحَ، وإنْ شُفَّعَ أنْ يُشَفَّعَ، وإنْ قال أنْ يُسْتَمَعَ، قال : ثم سكت، فمرَّ رجلٌ من فقراء المسلمين، فقال: «ما تقولون فى هذا ؟» قالوا : حرىُّ إنْ

(١) انظر : البداية والنهاية لابن كثير ٣ / ٣٠ - ٣١ .

(٢) الحديث قطعة من حديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب مناقب الأنصار: باب إسلام أبى ذرٍّ رضي الله عنه ٥ / ٥٩ - ٦٠، ومسلم فى : الصحيح : كتاب فضائل الصحابة : باب من فضائل أبى ذرٍّ رضي الله عنه ٤ / ١٩٢٣ - ١٩٢٥ رقم (٢٤٧٤ / ١٣٣) كلاهما من حديث ابن عباس مرفوعاً به .

خطب ألا يُنكح ، وإن شفع ألا يُشفع ، وإن قال ألا يُسمع ، فقال رسول الله ﷺ : « هذا خيرٌ من ملء الأرض من مثل هذا » (١) .

وعن خنساء بنت خدام الأنصارية: أن أباهَا زوَّجَهَا ، وهى ثيبٌ ، فكرهتُ ذلك ، فأتت رسول الله ﷺ فردتْ نكاحَهَا (٢) .

وكان ﷺ يشاور أصحابه فيما لا نصَّ فيه نزولاً على قوله سبحانه : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ، وتشجيعاً لهم على إبداء الرأى واحترامه ، وتقويمه بحكمة إن كان به شيء من الخلل ، وكذلك فعل الأئمة من بعده ﷺ إلى وقت قريب جداً .

عن الحسن قال : « ما تشاور قوم قط بينهم إلا هداهم الله لأفضل ما يحضرهم » ، وفى لفظ « إلا عزم الله لهم بالرشد أو بالذى ينفع » (٣) .

وعنه أيضاً قال : « قد علم أنه ما به إليهم حاجةٌ ، ولكن أراد أن يستنَّ به مَنْ بعده » (٤) .

وقال الشافعى : « إنما يؤمر الحاكم بالمشورة لكون المشير ينبِّهه على ما يغفل عنه ، ويدلُّه على ما لا يستحضره من الدليل لا ليقْلُدَّ المشير فيما يقوله ، فإن الله لم يجعل هذا لأحد بعد رسول الله ﷺ ، وقد ورد من استشارة الأئمة بعد النبى ﷺ أخبار كثيرة منها : مشاورة أبى بكر ؓ فى قتال أهل الردة ، وكان القراء أصحاب مجلس عمر ومشاورته ، واستشارة عثمان بن عفان ؓ الصحابة فى جمع الناس على مصحف واحد . . وهلم جرا » (٥) .

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب النكاح : باب الاكفاء فى الدين ٧ / ٩ - ١٠ ، وكتاب الرقاق : باب فضل الفقر ٨ / ١١٨ - ١١٩ ، وابن ماجه فى : السنن : كتاب الزهد : باب فضل الفقراء ٢ / ١٣٧٩ - ١٣٨٠ رقم ٤١٢٠ كلاهما من حديث سهل بن سعد الساعدى مرفوعاً واللفظ للبخارى .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب النكاح : باب إذا زوَّج ابنته وهى كارهة فنكاحه مردود ٧ / ٢٣ من حديث عبد الرحمن ، ومجمع ابنى يزيد بن جارية عن خنساء بنت خدام الأنصارية مرفوعاً بهذا اللفظ .

(٣) الحديث أورده ابن حجر فى : فتح البارى ١٣ / ٣٤٠ وعزاه إلى البخارى فى الأدب المفرد ، وابن أبى حاتم قائلًا : « أخرج البخارى فى الأدب المفرد : وابن أبى حاتم بسندى قوى عن الحسن قال : « ما تشاور قوم قط بينهم إلا هداهم الله . . » الحديث .

(٤) الحديث أورده ابن حجر فى : فتح البارى ١٣ / ٣٤٠ وعزاه إلى ابن أبى حاتم قائلًا : « وأخرج ابن أبى حاتم بسند حسن عن الحسن قال : « قد علم أنه ما به إليهم حاجة . . » الحديث .

(٥) انظر : فتح البارى ١٣ / ٣٤٢ - ٣٤٣ بتصرف كثير .

٣ - احترام آراء الآخرين ومحاولة توظيف هذه الآراء إن كانت نافعة :

هذا عبد الله بن الزبير بن العوام يأتي النبي ﷺ - كما تقول أمه أسماء - بعد سبع سنين ليبايع النبي ﷺ وقد أمره بذلك أبوه الزبير، فتبسم النبي ﷺ حين رآه مقبلاً، ثم بايعه ^(١).

وهذا عمر بن الخطاب يدعو رسول الله ﷺ ليعثه برسالته إلى أهل مكة يوم الحديبية يخبرهم بمقصده، وأنه لا يريد الحرب، وإنما يريد بيت الله الحرام للعمرة، فيبدى عمر رأيه في هذه المهمة قائلاً: « يا رسول الله ، إنى أخاف قريشاً على نفسى وليس بها من بنى عدى أحد يمنعنى، وقد عرفت قريش عداوتى إياها، وغلظتى عليها، ولكن أدلك على رجل هو أعز منى: عثمان ابن عفان»، واحترم النبي ﷺ رأيه، فدعا عثمان فبعثه برسالته إلى قريش.

ولما انتهى عقد الصلح بين النبي ﷺ وبين سهيل بن عمرو - ممثل قريش في الحديبية - قام رسول الله ﷺ فقال: « يا أيها الناس انحروا، واحلقوا »، قال: فما قام أحد، قال: ثم عاد بمثلها، فما قام رجل، حتى عاد بمثلها فما قام رجل، فرجع رسول الله ﷺ فدخل على أم سلمة، فقال: « يا أم سلمة، ما شأن الناس؟ » قالت: يا رسول الله قد دخلهم ما قد رأيت، فلا تكلمن منهم إنساناً، واعمد إلى هديك حيث كان فانحره واحلق، فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك، فخرج رسول الله ﷺ لا يكلم أحداً حتى أتى هديه فنحره، ثم جلس فحلق، فقام الناس ينحرون، ويحلقون... الحديث ^(٢).

إلى غير ذلك من الصور الدالة على احترامه ﷺ آراء الآخرين ، ومحاولة توظيف هذه الآراء إن كانت نافعة، وهكذا ينبغي اتباع هذا المنهج فى علاج الكبت بل توقيه.

(١) الحديث قطعة من حديث طويل أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الآداب: باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته وحمله ٣ / ١٦٩٠ - ١٦٩١ رقم (٢١٤٦ / ٢٥)، وانظر: سير أعلام النبلاء للذهبي ٣ / ٣٦٥.

(٢) الحديث جزء من حديث طويل أخرجه أحمد فى : المسند ٤ / ٣٢٤ - ٣٢٦ من حديث المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم قالاً: « خرج رسول الله ﷺ عام الحديبية يريد زيارة البيت لا يريد قتالا، وساق معه الهدى سبعين بدنة... الحديث، وابن هشام فى: السيرة النبوية ٣ / ٣٠٨، وعنهما نقل الدكتور أكرم ضياء العمري فى: السيرة النبوية الصحيحة ٢ / ٤٣٩ - ٤٤٦ بتصرف كثير.

٤ - السماح للقيم العليا، والمبادئ السامية أن تسود :

ذلك أن السَّماح للقيم العليا، والمبادئ السامية أن تسود، من شأنه أن يقضى على القيم الهابطة والمبادئ الساقطة، أو على الأقل يحاصرهما ويحصرهما فى دائرة ضيقة، فيزول بهذا سبب أساسى من أسباب الكبت والقهر من منطلق أن القيم العليا، والمبادئ السامية استجابة لنداء الفطرة، وإذا استجيب لنداء الفطرة كان الأمن والأمان والسكينة والطمأنينة، والعكس بالعكس.

وما غاية الجهاد فى ديننا الخفيف، بل فى رسالات الأنبياء والمرسلين جميعاً سوى إفساح المجال أمام القيم العليا والمبادئ السامية أن تأخذ طريقها إلى عقول الناس وقلوبهم، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾

[البقرة : ٢٥١]

وإذ يقول : ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهْذَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج : ٤٠] .

وصدق النبى ﷺ إذ يقول : «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا، وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، وَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقُوا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا : لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِينَا خَرْقًا، وَلَمْ نُوذْ مَنْ فَوْقَنَا ؟ فَإِنْ يَتْرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا » ^(١) .

٥ - حُسن المعاملة للغير ولو كان مخطئاً :

ذلك أن حسن معاملة الغير - ولو كان مخطئاً - تجعل العدو صديقاً، والبعيد قريباً، وتقضى على الكبت والقهر ، أو تخفف من حدتهما ، وصدق الحق - تبارك وتعالى - فى قوله : ﴿ وَلَا تَسْتَرِي الْحَسَنَةَ وَلَا السَّيِّئَةَ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٢٤) وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٢٥) [فصلت] .

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الشركة : باب هل يقرع فى القسمة والاستهام فيه ٣/ ١٨٢ ، وكتاب الشهادات : باب القرعة فى المشكلات ٣/ ٢٧٣ ، والترمذى فى : السنن : كتاب الفتن : باب منه ٤/ ٤٠٨ رقم (٢١٧٣) ، وعقب عليه بقوله : « هذا حديث حسن صحيح » ، وأحمد فى : المسند ٤/ ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، كلهم من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه مرفوعاً . واللفظ للبخارى .

ومن حُسْنِ المعاملة : الحوار الهادف الهادئ، والإصغاء للرأى الآخر، ومحاكمة الحجة بالحجة، والنزول على الحق بغض النظر عمن هدى إليه، وأبرزه فى الناس، وفى كتاب الله وسنة النبى ﷺ وسيرته من الجدل والمحاورة ومقارعة الحجة بالحجة الشيء الكثير، وحسبنا هنا ما دار بين موسى وهارون وبين الطاغية الجبار الذى قال للناس : ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى (٢٤)﴾ [النازعات] . وقال لهم أيضاً : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص : ٣٨] . وقال : ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩) ﴾ [غافر] .

٦ - مراعاة المعايير الإلهية فى تقييم الناس، وإسناد المهام إليهم :

إذ بين ربُّ العزة فى كتابه الكريم معايير وموازن تقييم الناس بقوله : ﴿ إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] . ويقول : ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمِنُونَ (٣٧) ﴾ [سبا] .

كما بين ذلك على لسان نبيه ﷺ ، عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : «إن ربكم واحد، وأباكم واحد، فلا فضل لعربى على أعجمى، ولا أحمر على أسود إلا بالتقوى» (١) .

وعن أبى ذر رضيه الله عنه أن النبى ﷺ قال له : « انظر فإنك لست بخير من أحمر، ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى الله » (٢) .

وعن أبى هريرة رضيه الله عنه أن النبى ﷺ سئل : أى الناس أكرم؟ قال : «أكرمهم عند الله أتقاهم . . . » الحديث (٣) .

(١) الحديث أورده الهيثمى فى : مجمع الزوائد : كتاب الأدب : باب لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ٨ / ٨٤ ، وعقب عليه بقوله : «رواه الطبرانى فى الأوسط، والبيهقى بنحوه إلا أنه قال : إن أباكم واحد، وإن دينكم واحد، أبوكم آدم، وآدم خُلِقَ من تراب، ورجال البزار رجال الصحيح» .

(٢) الحديث أخرجه أحمد فى : المسند ٥ / ١٥٨ بهذا اللفظ، وأورده الهيثمى فى : مجمع الزوائد : كتاب الأدب : باب لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ٨ / ٨٤ ، وعزاه إلى أحمد قائلا : «رواه أحمد ورجاله ثقات إلا أن بكر بن عبد الله المزنى لم يسمع من أبى ذر» .

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الأنبياء : باب قول الله تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَأَخُوهُ آيَاتٍ لِلنَّاسِينَ﴾ ٤ / ١٨٢ ، وكتاب التفسير : سورة يوسف : باب قوله : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَأَخُوهُ آيَاتٍ لِلنَّاسِينَ﴾ ٦ / ٩٥ من حديث أبى هريرة مرفوعاً، ولفظه - كما فى الرواية الثانية - قال : سئل رسول الله ﷺ : أى الناس أكرم؟ قال : «أكرمهم عند الله أتقاهم» قالوا : ليس عن هذا نسألك، قال : «فأكرم الناس : يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله»، قالوا : ليس عن هذا نسألك، قال : «فمن معادن العرب تسألونى؟» قالوا : نعم، قال : «فخياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فقهوا»، وعقب عليه بقوله : « تابعه أبو أسامة عن عبيد الله » .

وبيّنه أيضاً في قول ابنة العبد الصالح لأبيها في شأن موسى عليه السلام : ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ [٢٦] . [القصص] .

وجملة هذه المعايير: الكفاية والتقوى، أو القوة والأمانة، ومراعاتهما في تقييم الناس، وإسناد المهام إليهم يقضى على الكبت والقهر، بل يحمي النفس أصلاً من ذلك .

٧ - معايشة الصديق الصادق الوفي :

ذلك أن معايشة الصديق الصادق الوفي تقضى على الكبت أو القهر، بل تحمي النفس أصلاً من الإصابة بهذا النوع من الآفات، إذ من خصائصها: المواساة التي منها حكاية ما يعاني منه المكبوت أو المقهور لصديقه وأسباب ذلك، ورسم طريق العلاج والوقاية، وقد صور ذلك نبي الله موسى عليه السلام في قوله لربه : ﴿ وَاجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِ أَهْلِي ﴾ (٢٩) هَرُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) ﴿ [طه] .

كما صوره علقمة في وصيته لولده بقوله : « يا بني، إذا عرضت لك إلى صعبة الرجال حاجة، فاصحب من إذا خدمته صانك، وإن صحبته زانك، وإن قعدت بك مؤونة مانك، اصحب من إذا مددت يدك بخير مدّها، وإن رأى منك حسنة عدّها، وإن رأى سيئة سترها، اصحب من إذا سأله أعطاك، وإن سكت عنه ابتداك، وإن نزلت بك نازلة واساك، اصحب من إذا قلت صدق قولك، وإن حاولت أمراً أمرك، وإن تنازعتما أثرك » .

٨ - الإكثار من ذكر الله بمعناه العام الشمولي :

ويُعدّ الإكثار من ذكر الله بمعناه العام الشمولي الجامع لذكر الله العقلي بالعلم والتفكير، والقلبي بالتعظيم لله، والحب، واللساني بالثناء عليه سبحانه بما هو أهله، والبدني بتوظيف البدن فيما يرضيه سبحانه وتعالى، ثم دعوة الآخرين إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، فإن المراقبة على الذكر تفرغ النفس من كل كبت أو قهر، وتملؤها بالأمن والأمان والطمأنينة وسكينة النفس، وصدق الله الذي يقول : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (٢٨) ﴿ [الرعد] . ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (٨٧) ﴿ [الأنعام] . ﴿ فَادْكُرُونِي أذكُرْكُمْ واشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ (١٥٦) ﴿ [البقرة] .

على أن هذا الذكر من شأنه إلانة القلوب، وحمل النفس على العفو والصفح الجميل طمعاً في الأجر من الله والثوبة كما قال سبحانه : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [الشورى] .

وكما قال : ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [الشورى] .

٩ - التذكير بعواقب الكبت :

ولعل التذكير المستمر بعواقب الكبت أو القهر على النحو الذى تقدم مما يعين على التخلص من هذا الداء أو هذه الآفة، بل الحماية والوقاية، إذ النفس من شأنها النسيان والغفلة والتذكير خير علاج لذلك، قال تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات] . وقال تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ (٩) سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى (١٠) ﴿ [الأعلى] .